البلقان ـ الوطن الثاني للغجر

غالبا ما يصرح الخبراء بشئون الغجر أن إقليم البلقان هو "الموطن الثاني للغجر" ويرتبون ويصنفون " اللهجة الرومانية " ــ لغة الغجر ـ على أنها لغة هندية وهذا التأكيد على الدور الهام الذي لعبته أرض البلقان في تشكيل تاريخ وثقافة ولغة الغجر ليس مجرد تعبير متفق علية فقط، وإنما هو تعبيرٌ مبنى على بحثٍ علمي جاد خلال رحلتهم من أقصى الهند إلى وسط وغرب أوروبا، استقر الغجر " الرومانيون " في شبة جزيرة البلقان لقرون عديدة، وكما ستأتي عرضه فهناك نظريات متعددة حول وقت وصولهم لأرض البلقان، تتراوح فيما بين القرنين التاسع إلى الحادي عشر الميلادي، ولكن حيث أنهم بدءوا دخول غرب أوروبا خلال القرن الخامس عشر فقط،

فلابد وإنهم عاشوا في إقليم البلقان مدة خمسة قرون على الأقل، وكان لذلك تأثير واضح على تطوير الخصائص الرئيسية للغجر كجماعة بشرية وعلى ثقافاتهم بما في ذلك اللغة بالإضافة إلى أن أعدادا كبيرة من الغجر قد بقت في البلقان مقيمين فوق أرض الإمبراطورية العثمانية وولاياتها خاصة عند مراكز نهر الدانوب لمولدافيا وفالاتشيا، وبالتالي في الولايات التي أقيمت داخل حدود الإمبراطورية السابقة للدولة العثمانية وهى ولايات ظلت على ارتباط بتلك الإمبراطورية، أما في العصور الحديثة فقد هاجرت أعداد كبيرة منهم عبر العالم بما في ذلك ما يطلق عليه الغزو الكبير لطارقي النحاس "الكالديرارى" خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، مُشَكِلةً موجات الهجرة من يوغوسلافيا السابقة في ستينات القرن العشرين حتى ثمانيناته، كالهجرة إلى رومانيا التي أعقبت تغيرات عام ١٩٨٩ في أوربا الشرقية وتلك التي يمثلها اللاجئون في البوسنة وكوسوفو، وقد حملوا معهم آثأرا ملحوظة للتلاقح الثقافي واللغوي مع الشعوب الأخرى التي سيطرت على إقليم البلقان .

ومن العسير أن نقوم بشرح أو تفسير خصائص إقليم البلقان دون أن نضع في اعتبارنا دور الإمبراطورية العثمانية الذي كان له تأثيرٌ عميقٌ طوال خمسة قرون هيمنت فيها

على إقليم البلقان وعلى أشكال التطور الثقافي والتاريخي هناك، ويضم إلي ذلك ولايات أقيمت خلال القرنين، التاسع عشر والعشرين، أسست عقيدتها الفكرية على مناهضة هذه الإمبراطورية عند انعتاقها من إطارها السياسي محاولة ــ ليس بنجاح دائم ــ الانفصال عن تقاليدها الثقافية .

وسوف يركز هذا الكتاب على الغجر الذي كانوا يعيشون في منطقة البلقان ــ كما سيتضح فيما بعد ــ حيث كانت النسبة الأكبر من الغجر أثناء الحكم العثماني تتركز هناك، ومن هنا كان وجود دلائل تاريخية لها اعتبارها في هذا الإقليم ذات علاقة وثيقة بالغجر، والأكثر من ذلك كان للمقاطعات العثمانية ــ في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا حالات إدارية مختلفة وعليه كان لها بنية اجتماعية وسياسية مغايرة أيضا أدت إلى ظهور أحوال مختلفة عاش في ظلها الغجر تختلف عن تلك التي سادت البلقان، وأخيرا وليس بأخر على المرء أن يتذكر ــ بعكس ما هو موجود في البلقان ــ أن العدد الصغير نسبياً من أولئك الرُحّل الحرفيين في المقاطعات الأخرى لم يكونوا في عداد " الفئة الرومانية "، ولكل تلك الأسباب قررنا أن نسلط الضوء على الغجر المستقرين بمنطقة البلقان خلال حكم الإمبراطورية العثمانية في دراستنا الحالية .

كما نركز في كتابنا على تقديم مادة من مصادرها بدلا من تقديم رؤيتنا الشخصية ويستهدف الكتاب ـ بقدر الإمكان ـ تقديم صورة حقيقية لحياة الغجر في ذلك الإقليم خلال تلك الفترة، وقد قادتنا الكثير من المحاولات السابقة التي قام بها الآخرون لتناول هذا الموضوع بالأخص ثم لبعض المطبوعات العامة حول مسألة الغجر إلى الإيمان بأن اختلاف رؤية المؤلفيّن قد تؤدى لتشويه الحقائق، خاصة إذا ما حدث سوء فهم أو تقصير للدراسة، إذ لم يكن الغجر في إقليم البلقان معزولين عن البيئة الثقافية والاجتماعية المحيطة، بل كانوا ـ على العكس من ذلك ـ جزءا متكاملا مع تلك البيئة وبالتالي تأثروا بعمق بثقافات الجماعات المتعددة داخل الإقليم، وكانت الإمبراطورية العثمانية عاملا أساسيا في تطوير جماعات الغجر، وتعد دراسة وفهم هذه النقطة بالذات هدفا أوليا في إصدارنا هذا .

ويثير أى مدخل لتاريخ الغجر في ظل الإمبراطورية العثمانية بعضا من المشكلات الجادة والتي لا يمكن تجنبها في شرح الواقع الاجتماعي والثقافي والتاريخي غير المألوف ـ عامة ـ للقارئ الأوروبى، وعلى أية حال فإن تقديم شرح مفصل لكل المصطلحات العثمانية الصادرة عن أجهزة الإدارة في الإمبراطورية، والنظام الاجتماعي والمؤسسات الدينية،

والالتزامات الضريبية والرتب العسكرية مع تطورها خلال خمسة قرون سيؤدى لظهور كتاب مستقل عن الإمبراطورية العثمانية وليس هناك نقص الآن في توافر مثل هذه الكتب ،وقد عملنا على أن نستخدم الكثير من تلك المصطلحات العثمانية الأصلية مع الكلمات المكتوبة بالانجليزية حسب نطقها بلغتها الأصلية حيثما أمكن، وقدمنا شروحا قصيرة لذلك في متن الكتاب بينما طمحنا في الحالات الأخرى الباقية أن يتضح المعنى أمام القارئ من خلال السياقات التي وردت فيها تلك المصطلحات، أما أولئك القراء المهتمون بالمعاني الدقيقة لها فيمكنهم الرجوع إلى المعاجم وإلى كتب الأدلة التاريخية المتخصصة في الإمبراطورية العثمانية، وقد ساهم زميلنا وصديقنا دونالد كيتريك في إبداع هذا الكتاب بنسبة كبيرة، إذ ساعد منذ البداية بالأسئلة والتعليقات والملاحظات الهامة، مع إمدادنا بأدبيات الموضوع المعروفة علميا، التي كان من المحال العثور عليها في بلغاريا ثم قام بتحرير الترجمة الانجليزية، ونحن نود أن نعبر عن شكرنا المخلص والعميق لتلك المساعدة القيمة .

كما نوجه شكرنا ــ أيضا لمترجمة هذا الكتاب أولجا أبو ستولوفا التي بذلت جهدا كبيرا في تيسيره للقراء الناطقين بالانجليزية، ونشكر

استرد فورن هيلينج في مركز دراسات غجر أوروبا الشرقية في باريس لعنايتها باختيار وسائل الإيضاح اللازمة للكتاب .

وقد وضعنا الألفاظ الأجنبية في حروف مائلة عند ورودها لأول مرة لو لم يتم شرحها وسط النص أو لو وردت مرات تالية، ولسوف يجدها القارئ في القاموس الملحق بالكتاب، أما أسماء الأماكن التي وضع معها علامة فلها أسماء حديثة ذكرناها في نهاية الملحق.

*** بداية هجرات الغجر**

مازالت العديد من الأسئلة التى لا تجد إجابة تواجه الدراسات العلمية فيما يتعلق بأصل الغجر الرومانيين، مثل أسباب هجرة أجدادهم من الهند وتاريخ رحيلهم، والمراحل المبكرة لهجرتهم نحو أوروبا .. إذ تتعدد التقديرات المفسرة لبدايات هجراتهم من الهند وتوزعهم في شتى أنحاء العالم بصورة كبيرة .تراوحا من القرن الخامس وحتى القرن الخامس عشر، والأساس الذي يعود إليه التاريخ المبكر لذلك هو الدليل المعروف المأخوذ من كتابات المؤرخ العربي حمزة الأصفهانى في القرن التاسع ثم من الشاعر الفارسي الفردوسي في كتابه " ملوك عام ١٠١١"، وكلا الكاتبين يعيدان شرح صور مختلفة لقصة الشاة الفارسي جهرام جورجيا (٣٨ــ ٤٢٠) وفى القصة نقرأ " أن

احد ملوك الهند أرسل ــ كما يقال ــ للشاة مجموعة كبيرة من الموسيقيين (ممن يسمون الروى او اللورى) مع عائلاتهم، وهم من غادر معظمهم في تاريخ لاحق البلد وجالوا عبر العالم ووفقا للعديد من المؤلفات فإن الأحداث التي تم سردها ــ رغم أنها نُقلتْ في شكل أسطورى قد تأصلت في الحقائق التاريخية ويمكن تناولها للإشارة إلى مراحل أساسية في هجرة الغجر .

وترتبط مشكلة تحديد بداية هجراتهم مباشرة بالمحاولات التي استهدفت استبيان أسباب تلك التحركات من خلال ارتباطها بأحداث تاريخية، وهناك نظريات متعددة لذلك لكن الاعتقاد السائد هو أن ما تم لم يكن حدثا واحدا فقط وإنما تم خلال عملية طويلة دامت عدة قرون ،عملية غادر فيها أجداد أولئك الغجر (من طبقات مختلفة ــ بشمال غرب الهند ــ أساسا ــ ومن أقاليم أخرى ولأسباب متعددة) موطنهم الأصلي في جماعات صغيرة مستهدفين المضي قدما في الطريق الطويل نحو أوروبا .

وكان من المعتقد في الغالب أن عملية الهجرة هذه قد حفزتها غزوات قبائل الهون البيضاء الابيثالية من وسط أسيا خلال القرنين الخامس والسادس والكوارث الخطيرة التي سببتها تلك الغزوات للمجتمع الهندي، بما ذلك سقوط حكم أسرة " جوبتا" وتفكك

الإمبراطورية مع انهيار المدن وانحدار الزراعة و انتشار المجاعات والأوبئة، كما كان الغزو العربي للهند خلال القرنين السابع والثامن ـ خاصة في إقليم السند ـ فترة أزمات اجتماعية واقتصادية نتج عنها هجرات جماعية كبيرة وقد استثارت غزوات أخرى لاحقة - يطرحها بعض الباحثين ـ هجرات تالية قام بها أسلاف الغجر، منها على سبيل المثال التي قام بها محمود الغزنوى، في القرن الحادي عشر ومحمد غور في القرن الثاني عشر وحتى غزو تيمور لنك (في بداية القرن الخامس عشر) تعد كلها متأخرة حيث أن الغجر ـ حتى ذلك الحين ـ كانوا قد ظهروا في السجلات التاريخية البيزنطية و أوربا، ورغم ذلك يمكن للمرء أن يتقبل فكرة وجود هجرات أخرى متأخرة من الهند، وهو فرض لايتعارض مع تاريخ المنطقة، وعلى سبيل المثال، فإن المجموعة التي تسمى هيسارسكى باریاه - وتُصنف حاليا على أنها استقرت بآسيا الوسطى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر .